Al-Fikr Al-Siasi Al-Islami
EISSN: 2015-2783
Islamic Sciences and culture Academy
Scientific-Specialized Bi-Annual journal
Vol. 2 ● No. 2 ● Issue 4 ● Autumn & Winter ● 2022

Social and Political Change in Society from the Perspective of Martyr Seyyed Mohammad Bagher Sadr

Seyyed Monzar Al-Hakim[1]

Received: 26/11/2024 Accepted: 05/01/2025

Abstract

A challenge that currently occupies the minds of humanity is the "problem of the social system." This challenge is rooted in human history, and humans have faced it since the emergence of social life. We see that humanity has never ceased its efforts to reform societies, yet it has never fully achieved this goal. In the thought of Ayatollah Martyr Mohammad Bagher Sadr, religion is a cornerstone that helps provide real solutions to all that humans suffer from. Therefore, religion offers the answer to this profound problem. Martyr Sadr affirms that the Holy Quran contains a social theory; a theory based on the Quran's vision of the universe and its laws (or divine traditions). Thus, Martyr Sadr has proposed a stable social and political system inspired by this precious book. To address the aforementioned challenge, it is essential to move towards "social change" by understanding the laws and norms governing social relations, ultimately achieving the implementation of "an ideal social and political system for human life."

Keywords

Social changes, political changes, social system, divine traditions, Martyr Seyyed Mohammad Bagher Sadr.

1. Professor of Advanced Levels in Islamic Seminary, Qom, Iran

∗ Hakim, M. (2025). The Role of Divine Traditions in Creating Social and Political Transformations, from the Perspective of Martyr Seyyed Mohammad Bagher Sadr. *Journal of Al-Fikr al-Siyasi al-Islami*, *2*(4), pp. 94-124. DOI: 10.22081/ipt.2025.71322.1015

©The author(s); **Type of article:** Research Article

الفكر السياسي الإسلامي
EISSN: ٢٧٨٣-٢٠١٥
مجلة علمية نصف سنوية
المجلد ٢ ● العدد ٢ ● الرقم المسلسل للعدد ٤ ● خريف و شتاء ● ٢٠٢٢

التغيير الإجتماعي السياسي في المجتمع
من منظور الشهيد السيد محمدباقر الصدر

السيد منذر الحكيم[١]

تاريخ الإستلام: ٢٠٢٤/١١/٢٦ تاريخ القبول: ٢٠٢٥٢/٠١/٠٥

الملخص

إنّ مشكلة العالم التي تملأ فكر الإنسانية اليوم وتمسّ واقعها بالصميم هي مشكلة النظام الاجتماعي وهذه المشكلة عميقة الجذور في الأغوار البعيدة من تاريخ البشرية، وقد واجهها الإنسان منذ نشأت في واقعه الحياة الاجتماعية. نرى أنَّ الإنسان لم يتوقف يومًا عن السعي وراء الإصلاح لكنَّه لم يظفر به أبدًا. في فكر الشهيد الصدر، يُعدّ الدين هو الركيزة التي تُسهم في إرساء الحلول الحقيقية لكلّ ما يعانيه الإنسان وأنّ الدين هو الذي يقدم الجواب لحل هذه المشكلة العميقة. ويؤكد الشهيد الصدر أنَّ القرآن الكريم يحتوي على نظرية اجتماعية، مستندة إلى رؤيته الخاصة للكون ولقوانينه (السنن) وقدم منظومة اجتماعية وسياسية راسخة مستوحاة من هذا الكتاب العزيز. يجب أن نبدأ في معالجة هذه المشكلة عبر فهم السنن والقوانين التي تحكم العلاقات الاجتماعية، ثم التحول إلى التغيير الاجتماعي، الذي يؤدي في النهاية إلى تطبيق النظام الاجتماعي والسياسي النموذجي فى حياة الإنسان. **نظام البحث:** المقدمة، مشكلة الإنسان المعاصر وأسبابها، عمليّة التغيير الإجتماعى وأبعادها، الفتح القرآنى العظيم وسنن التغيير

١. أستاذ الدراسات العليا في الحوزة العلمية، قم، ايران.

* الحكيم، السيد منذر. (٢٠٢٢). التغيير الإجتماعي السياسي في المجتمع من منظور الشهيد السيد محمدباقر الصدر. مجلة الفكر السياسي الاسلامي النصف سنوية العلمية، ٢(٤)، صص ٩٤-١٢٤.
DOI: 10.22081/ipt.2025.71322.1015

الإجتماعي، خصائص السنن الإجتماعية، أنواع السنن الإجتماعية في القرآن الكريم، نماذج من السنن الموضوعية في القرآن، منظومة السنن الإجتماعية في القرآن الكريم، سنن التغيير الإجتماعي، سنن الإنهيار الاجتماعي، نتائج البحث.

الكلمات المفتاحية

التغيير الاجتماعي، التغيير السياسي، النظام الاجتماعي، السنن الإلهية، الشهيد السيد محمد باقر الصدر

http://ipt.isca.ac.ir
Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

المقدمة

على مرِّ العصور والأزمان، نرى أنَّ الإنسان لم يتوقف يومًا عن السعي وراء الإصلاح، سواء كان ذلك عن وعي فطري أو عن وعي علمي. وقد تجاهل البعض هذا النداء الفطري، بينما استجاب آخرون لهذا النداء، وإذا أمعنّا النظر في صفحات التاريخ، وجدنا أنَّ الذين قد خاضوا غمار الصراعات السياسية والثورات، لم تغب عن أذهانهم لحظةً فكرة التغيير. إنَّ ما شهدناه من انقلابات، وانتفاضات، وإصلاحات، ومظاهرات، إنما هى دلائل تشهد على أنَّ البشرية كلها كانت تهفو نحو التغيير المطلوب، لكنَّها لم تظفر به أبدًا. إنَّ التغيير الجذري العميق المطلوب الذي لا يحتاج إلى مزيد من التعديل أو التغيير، لم يتحقق في واقعنا قط.

قال الشهيد الصدر: «إنّ مشكلة العالم التي تملأ فكر الإنسانية اليوم وتمسّ واقعها بالصميم هي مشكلة النظام الاجتماعي التي تتلخّص في إعطاء أصدق إجابة عن السؤال الآتي:

ما هو النظام الذي يصلح للإنسانية وتسعد به في حياتها الاجتماعية؟

ومن الطبيعي أن تحتلّ هذه المشكلة مقامها الخطير، وأن تكون في تعقيدها وتنوّع ألوان الاجتهاد في حلّها مصدراً للخطر على الإنسانية ذاتها؛ لأنّ النظام داخل في حساب الحياة الإنسانية ومؤثّر في كيانها الاجتماعي بالصميم.

وهذه المشكلة عميقة الجذور في الأغوار البعيدة من تاريخ البشرية، وقد واجهها الإنسان منذ نشأت في واقعه الحياة الاجتماعية، وانبثقت الإنسانية الجماعية تتمثّل في عدّة أفراد تجمعهم علاقات وروابط مشتركة، فإنّ هذه العلاقات في حاجة ـ بطبيعة الحال ـ الى توجيه وتنظيم شامل، وعلى مدى انسجام هذا التنظيم مع الواقع الإنساني ومصالحه يتوقّف استقرار المجتمع وسعادته» (الصدر، ١٤٣٤ق «ج»، صص ١٥ ـ ١٦؛ انظر كذلك مقدمة كتاب *فلسفتنا* (الصدر، ١٤٣١ق «أ»)).

قدم الشهيد الصدر منظومة اجتماعية وسياسية واضحة، مُستوحاة من الكتاب العزيز المصدر الاول للتشريع الاسلامى المبين، لمواجهة التحديات التي تعيشها البشرية وتحقيق آمالها في الإصلاح المنبثق عن العدالة الاجتماعية الشاملة.

"إنّ الشهيد الصدر يرى الانسان موجودا يتكامل فى الإطار الاجتماعي، والدين الاسلامي يركز على المسيرة الإنسانية الاجتماعية المتكاملة وإن كان يمنح الفرد اصالته الذاتية.

هذه النظرة الاجتماعية الواسعة تجلت فى اغلب، بل فى كل ماكتبه الصدر، حتى تجده يطرح النظرية الفلسفية الاسلامية من خلال مقدمة اجتماعية واذا تعرض لحركة الاجتهاد طرحها بهذا المنظار، واذا درس فكرة الإمامة أو الخلافة الانسانية تجلى فيها هذا البعد بشكل رائع.

كل هذه كانت ملامح مهمة للشهيد السعيد، منظّرا للامّة حركتها ومسيرتها، ومبيّنا لها عقيدتها ونظرتها الكونية وايديولوجيتها السلوكية الخاصة والعامة" (التسخيرى، ٢٠٠٩م).

في فكر الشهيد الصدر، يُعدّ الدين هو الركيزة التي تُسهم في تقديم وإرساء الحلول الحقيقية لكلّ ما يعانيه الإنسان، فهو الجواب النهائي والشامل لكافة احتياجاته، وهو القادر على حلّ كلّ مشاكله على مرّ العصور.

مشكلة الإنسان المعاصر وأسبابها

إنّ مشكلة الإنسان المعاصر هى مشكلة النظام الاجتماعي[1] الصالح لتنظيم حياته وهى تنشأ من سببين:

الأول: هو فقدان النظام الاجتماعي الأصلح لإدارة الحياة الانسانيه،

الثاني: هو غياب الضمانات التنفيذية اللازمة لتطبيق هذا النظام.

١. للتعرف على النظام الاجتماعى الإسلامى انظر: الحكيم، ١٤٣٧ق، ص ٨٣.

http://ipt.isca.ac.ir
Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

أما النظام الاجتماعي الأصلح فهو النظام القادر على تنظيم العلاقات الاجتماعية والسياسية بما يمنع النزاعات والتوترات الاجتماعية ويقي البشرية من هذا الشقاء.

و في فكر الشهيد الصدر أنّ الدين هو الذي يقدم الجواب على هذا الإشكال العميق (انظر: الصدر، ١٤٣١ق «أ»، ص ٥٥؛ الصدر، ١٤٣١ق «ب»، ص ٧٦)، إذ يقدم الحلول الأساسية لهذه المشكلة الجوهرية. إذ يجب أن يرتكز النظام الاجتماعي على نظرية اجتماعية ومذهب اجتماعي محدد. ويؤكد الشهيد الصدر أنَّ القرآن الكريم يحتوي على نظرية اجتماعية، مستندة إلى رؤيته الخاصة للكون ولقوانينه.

لذا، يجب أن نبدأ في معالجة هذه المشكلة عبر فهم السنن والقوانين التي تحكم العلاقات الاجتماعية، ثم التحول إلى التغيير الاجتماعي، الذي يؤدي في النهاية إلى تحقيق النظام الاجتماعي والسياسي النموذجي للإنسان.

عمليّة التغيير الإجتماعي وأبعادها

وعمليّة التغيير الاجتماعي (الحكيم، ١٤٣٢ق، ص ١٦٨) فيها جانبان:

الجانب الأوّل: جانب المحتوى والمضمون وما تدعو إليه هذه العملية التغييرية من أحكام ومن مناهج وما تتبنّاه من تشريعات، هذا الجانب من عملية التغيير جانب ربّاني، جانب إلهي سماوي، هذا الجانب يمثّل شريعة الله سبحانه وتعالى التي نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وتحدّت بنفس نزولها عليه كلّ سنن التاريخ المادية، لأنّ هذه الشريعة كانت أكبر من الجوّ الذي نزلت عليه، ومن البيئة التي حلّت فيها، ومن الفرد الذي كلّف بأن يقوم بأعباء تبليغها.

هذا الجانب من عملية التغيير، جانب المحتوى والمضمون، جانب التشريعات والأحكام والمناهج التي تدعو إليها هذه العملية، هذا الجانب جانب ربّاني إلهي، لكن هناك جانب آخر لعمليّة التغيير التي مارسها النبيّ وأصحابه الأخيار: هذه

العملية حينما تلحظ بوصفها عملية متجسّدة في جماعة من الناس وهم النبي والصحابة، بوصفها عملية اجتماعية متجسّدة في هذه الصفوة، وبوصفها عملية قد واجهت تيارات اجتماعية مختلفة من حولها واشتبكت معها في ألوان من الصراع والنزاع العقائدي والاجتماعي والسياسي والعسكري، حينما تؤخذ هذه العملية التغييرية بوصفها تجسيداً بشرياً واقعاً على الساحة التاريخية مترابطاً مع الجماعات والتيارات الأُخرى التي تكتنف هذا التجسيد والتي تؤيّد أو تقاوم هذا التجسيد، حينما تؤخذ العملية من هذه الزاوية تكون عملية بشرية، يكون هؤلاء أُناساً كسائر الناس تتحكّم فيهم إلى درجة كبيرة سنن التاريخ التي تتحكّم في بقية الجماعات وفي بقية الفئات على مرّ الزمن.

إذن، عملية التغيير التي مارسها القرآن ومارسها النبيّ لها جانبان، من حيث صلتها بالشريعة وبالوحي ومصادر الوحي هي ربانية، هي فوق التاريخ، ولكن من حيث كونها عملا قائماً على الساحة التاريخية، من حيث كونها جهداً بشرياً يقاوم جهوداً بشرية أُخرى، من هذه الناحية يعتبر هذا عملا تاريخياً تحكمه سنن التاريخ وتتحكّم فيه الضوابط التي وضعها الله سبحانه وتعالى لتنظيم ظواهر الكون في هذه الساحة المسمّاة بالساحة التاريخية؛ ولهذا نرى أنّ القرآن الكريم حينما يتحدّث عن الزاوية الثانية، عن الجانب الثاني من عملية التغيير يتحدّث عن أُناس، يتحدّث عن بشر، لا يتحدّث عن رسالة السماء، بل يتحدّث عنهم بوصفهم بشراً من البشر تتحكّم فيهم القوانين التي تتحكّم في الآخرين.

فالكلام هنا كلام مع بشر، مع عملية بشرية لا مع رسالة ربانية، بل يذهب القرآن إلى أكثر من ذلك، يهدّد هذه الجماعة البشرية التي كانت أنظف وأطهر جماعة على مسرح التاريخ، يهدّدهم بانهم إذا لم يقوموا بدورهم التاريخي وإذا لم يكونوا على مستوى مسؤولية رسالة السماء فإنّ هذا لا يعني أن تتعطّل رسالة السماء، ولا يعني أن تسكت سنن التاريخ عنهم، بل إنّهم سوف يُستبدلون، سنن

http://ipt.isca.ac.ir
Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

التاريخ سوف تعزلهم وسوف تأتي بأُمم أُخرى قد تهيّأت لها الظروف الموضوعية الأفضل لكي تلعب هذا الدور، لكي تكون شهيدة على الناس إذا لم تتهيّأ لهذه الأُمّة الظروف الموضوعية لهذه الشهادة: ﴿إِلّا تنفِروا يُعَذِّبكم عَذاباً أليماً ويَستَبدِل قوماً غَيرَكُمْ ولا تَضرّوهُ شيئاً واللهُ على كُلِّ شيء قدير﴾ (التوبة، ٣٩)، ﴿يا أيّها الذين آمنُوا مَن يَرتدّ مِنكُم عن دِينِه فَسَوفَ يأتي اللهُ بقوم يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ أذِلَّة عَلى المؤمنينَ أعِزّة عَلى الكافِرينَ يُجاهِدُون في سَبِيلِ اللهِ ولا يَخافُونَ لَومَةَ لائِم ذلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة، ٥٤).

فالقرآن الكريم حينما يتحدّث عن الجانب الثاني من عملية التغيير، يتحدّث مع البشر، مع البشر في ضعفه وقوّته، في استقامته وانحرافه، في توفّر الشروط الموضوعية له وعدم توفّرها (الصدر، ١٤٣١ق «ب»، صص ٤٩ ـ ٥٢).

الفتح القرآني العظيم وسنن التغيير الإجتماعي

من مجموع هذه الآيات الكريمة يتبلور المفهوم القرآني وهو تأكيد القرآن على أنّ الساحة التاريخية لها سنن ولها ضوابط كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الأُخرى. وهذا المفهوم القرآني يعتبر فتحاً عظيماً للقرآن الكريم؛ لأنّنا ـ في حدود ما نعلم ـ نجد أنّ القرآن الكريم أول كتاب عرفه الإنسان أكّد على هذا المفهوم وكشف عنه وأصرّ عليه وقاوم بكل ما لديه من وسائل الاقناع والتفهيم، قاوم النظرة العفوية أو النظرة الغيبية الاستسلامية لتفسير الأحداث، ونبّه العقل البشري إلى أنّ هذه الساحة لها سننها ولها قوانينها، وأنّه لكي تستطيع أن تكون إنساناً فاعلا مؤثراً لابدّ لك أن تكتشف هذه السنن، لابدّ لك أن تتعرف على هذه القوانين لكي تستطيع أن تتحكم فيها، وإلّا تحكّمت هي فيك وأنت مغمض العينين. افتح عينيك على هذه السنن لكي تكن أنت المتحكّم لا لكي تكون هذه السنن هي المتحكّمة فيك (الصدر، ١٤٣٤ق «ج»، صص ٥٦ ـ ٦٧).

خصائص السنن الإجتماعية (التاريخية)

قال الشهيد الصدر: «من خلال استعراضنا للنصوص القرآنية الكريمة التي أوضحت فكرة السنن التاريخية وأكدت عليها، يمكننا أن نستخلص من خلال المقارنة بين تلك النصوص ثلاث حقائق أكّد عليها القرآن الكريم بالنسبة إلى سنن التاريخ. أحدها:

اختيار الإنسان ودوره في السنن التاريخية

والحقيقة - التي أكّد عليها القرآن الكريم من خلال النصوص المتقدمة -: هي حقيقة اختيار الإنسان وإرادة الإنسان، وهذه الحقيقة التأكيد عليها في مجال استعراض سنن التاريخ مهم جداً، إذ سوف يأتي إن شاء الله تعالى بعد محاضرتين أنّ البحث في سنن التاريخ خلق وهماً، وحاصل هذا الوهم الذي خلقه هذا البحث عند كثير من المفكرين: أنّ هناك تعارضاً وتناقضاً بين حرية الإنسان واختياره وبين سنن التاريخ، فإمّا أن نقول بأنّ للتاريخ سننه وقوانينه، وبهذا نتنازل عن إرادة الإنسان واختياره وعن حريته، وإمّا أن نسلّم بأنّ الإنسان كائن حرّ مريد مختار، وبهذا يجب أن نلغي سنن التاريخ وقوانينه ونقول بأن هذه الساحة قد أُعفيت من القوانين التي لم تعف منها بقية الساحات الكونية.

هذا الوَهْمُ، وهم التعارض والتناقض بين فكرة السنة التاريخية أو القانون التاريخي وبين فكرة اختيار الإنسان وحرّيته، هذا الوهم كان من الضروري للقرآن الكريم أن يزيحه وهو يعالج هذه النقطة بالذات. ومن هنا أكد سبحانه وتعالى على أن المحور في تسلسل الأحداث والقضايا إنّما هو إرادة الإنسان. وسوف أتناول إن شاء الله تعالى بعد محاضرتين الطريقة الفنية في كيفية التوفيق بين سنن التاريخ وإرادة الإنسان، وكيف استطاع القرآن الكريم أن يجمع بين هذين الأمرين من خلال فحص للصيغ التي يمكن في إطارها صياغة السنة التاريخية. سوف أتكلم عن ذلك بعد محاضرتين. لكن يكفي الآن أن نستمع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إنّ اللهَ لا يُغيِّر ما بِقَوم حتى يُغيِّروا ما بأنفُسِهِم**﴾ (الرعد، ١١).

http://ipt.isca.ac.ir
Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

﴿وأن لّو استَقامُوا على الطرِيقَة لأسقَيناهُم ماءً غَدَقاً﴾ (الجن، ١٦).

﴿وتلك القُرى أهلَكناهُم لمّا ظَلَمُوا وَجَعَلنا لِمَهلِكهم موعِداً﴾ (الكهف، ٥٩).

انظروا كيف أنّ السنن التاريخية لا تجري من فوق رأس الإنسان بل تجري من تحت يد الإنسان، فإنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً. إذن هناك مواقف إيجابية للإنسان تمثّل حريته واختياره وتصميمه، وهذه المواقف تستتبع ضمن علاقات السنن التاريخية، تستتبع جزاءاتها المناسبة، تستتبع معلولاتها المناسبة. إذن فاختيار الإنسان له موضعه الرئيسي في التصوّر القرآني لسنن التاريخ.

نستطيع أن نستخلص مما سبق أنّ السنن التاريخية أو السنن القرآنية للتاريخ، ذات طابع علمي؛ لأنّها تتميز بالاطّراد الذي يميّز القانون العلمي، وذات طابع رباني؛ لأنّها تمثّل حكمة الله وحسن تدبيره على الساحة التاريخية، وذات طابع إنساني؛ لأنّها لا تفصل الإنسان عن دوره الإيجابي ولا تعطّل فيه إرادته وحريته واختياره، وإنّما تؤكد أكثر فأكثر مسؤوليته على الساحة التاريخية». (الصدر، ١٤٣١ق «ب»، صص ٦٩-٧٨)

ولعلّ بداهة اختصاص هذه الميزة بالسنن المشروطة والتي تشغل حيزاً مهماً من مساحة الظواهر الاجتماعية للانسان هو الذي جعلها ميزة عامة على غرار الاطراد والربانية.

غير أن التأمل في أقسام السنن الإلهية يكشف لنا عن اختصاص هذه الميزة بنوع خاص من السنن الإلهية، حيث إن السنن المطلقة لا تشملها هذه الميزة بل هي فوق الارادة والاختيار الإنساني (الحكيم، ١٤٣٢ق، ص ٢٧٤).

أنواع السنن الاجتماعية في القرآن الكريم

اعتنى الباحثون في حقل السنن الاجتماعية التي ذكرها القرآن الكريم بتنويع السنن وتقسيمها. (الحكيم، ١٤٣٧ق، ص ٥٦).

والقاسم المشترك بين مختلف التقسيمات المذكورة في هذا الحقل هو التقسيم الثنائي الى: سنن مطلقة وسنن مشروطة.

بينما تجد الشهيد الصدر قد ثلّث الاقسام وأبدع قسماً ثالثاً يتأرجح بين المطلقة والمشروطة من السنن، سمّها بالسنن الموضوعية وهي السنن التى تعبّر عن اتجاه موضوعي في المسير الانسانية الاجتماعية ومثّل لها بسنة الدين الحق وسنة النكاح ويمكن أن نضيف اليها سنة قيمومة الرجل في الحياة الأسرية التي تعبّر عن اتجاه طبيعي في الحياة الاجتماعية الاسرية.

وقال عنها: انها سنن لا يمكن التخلف عنها على المدى البعيد وان امكن التخلف عنها على المدى القريب.

نعم لا يمكن التخلف عن السنن المطلقة بتاتاً ويمكن التخلف عن السنن المشروطة بتغيير الشرط واستبداله بشرط آخر، وينتهي هذا التغيير الى استبدال سنة بسنة أخرى تعادلها أو تضاهيها في الموقع أو تقابلها.

ومن هنا تتوسط السنن الموضوعية بين السنن المشروطة والمطلقة من حيث الخصائص وتجمع بين ميزتي امكان التخلص وعدم امكان التخلص منها. ولعل هذا التشابه والاختلاف هو الذي جعله أن يطرحها عِدلاً للسنن المشروطة والمطلقة.

وان امكن تقسيم هذه السنن الثلاث بشكل آخر اي استبدال التقسيم الثلاثي بتقسيم ثنائي كالآتي:

السنن إما مطلقة لا يمكن التخلف عنها، أو مشروطة يمكن التخلّف عنها، والسنن المطلقة التي لا يمكن التخلف عنها تنقسم الى قسمين: قسم لا يمكن التخلف عنه فى كل الظروف والأحوال. وقسم لا يمكن التخلف عنه على المدى البعيد فقط وان امكن التخلف عنه على المدى القريب.

وعلى كل تقدير فإن الأمر البديع في تقسيم الشهيد الصدر هو الالتفات الى طبيعة سنة التدين النظرة (والدين الفطري الحق) وسنة النكاح ووتحليل حاجة

http://ipt.isca.ac.ir
Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

الانسان الى الدين الحق لحاجة فطرية لا يمكن التخلف عنها على المدى البعيد إلا أن يُمسخ الانسان ويستبدل بغيره تعالى وهذا ما لا يكون. ومن هنا نفهم أن ماجاء في المدرسة القرآنية من تحليل وتفسير له ما يكمله فى بحثه عن نظام العبادات (الصدر، ١٤٣٤ق، «ب»، ص ٧٤٩) وسوف نقف عنده قليلاً إن شاء الله تعالى. (انظر: الحكيم، ١٤٣٢ق، ص ٢٧٤).

ولبيان ما أفاده الشهيد الصدر حول تنويع السنن الإجتماعية نقرأ معا ما قاله تحت عنوان: «أشكال السنن التاريخية في القرآن»:

قال قدس سره: «حان الأوان لكي نتعرف على الصيغ المتنوعة التي تتّخذها السنة التاريخية القرآنية:

كيف يتم التعبير موضوعياً عن القانون التاريخي في القرآن الكريم؟

ما هي الأشكال التي تتخذها سنن التاريخ في مفهوم القرآن الكريم؟

هناك ثلاثة أشكال تتّخذها السنة التاريخية في القرآن الكريم، لابدّ من استعراضها ومقارنتها والتدقيق في أوجه الفرق بينها:

١. شكل القضيّة الشرطيّة (السنن المشروطة)

الشكل الأوّل للسنة التاريخية: هو شكل القضية الشرطية. في هذا الشكل تتمثّل السنة التاريخية في قضية شرطية تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية، وتؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء، وأنّه متى ما تحقّق الشرط تحقّق الجزاء. وهذه صياغة نجدها في كثير من القوانين والسنن الطبيعية والكونية في مختلف الساحات الأُخرى.

فمثلا: حينما نتحدّث عن قانون طبيعي لغليان الماء، نتحدّث بلغة القضية الشرطية، نقول بأنّ الماء إذا تعرّض إلى الحرارة وبلغت الحرارة درجة معينة، مئة مثلا في مستوى معين من الضغط، حينئذ سوف يحدث الغليان. هذا قانون طبيعي يربط بين الشرط والجزاء ويؤكد أنّ حالة التعرض إلى الحرارة ضمن

مواصفات معينة تذكر في طرف الشرط، تستتبع حادثة طبيعية معينة وهي غليان هذا الماء، تحوّل هذا الماء من سائل إلى غاز. هذا القانون مصاغ على نهج القضية الشرطية.

ومن الواضح أنّ هذا القانون الطبيعي لا ينبّئنا شيئاً عن تحقّق الشرط وعدم تحقّقه، لا ينبّئنا هذا القانون الطبيعي عن أنّ الماء هل سوف يتعرض للحرارة أو لا يتعرض للحرارة؟ هل أنّ حرارة الماء ترتفع إلى الدرجة المطلوبة ضمن هذا القانون أو لا ترتفع؟ هذا القانون لا يتعرض إلى مدى وجود الشرط وعدم وجوده، ولا ينبئنا بشيء عن تحقق الشرط إيجاباً أو سلباً، وإنّما ينبّئنا عن أنّ الجزاء لا ينفك عن الشرط، متى ما وجد الشرط وجد الجزاء. فالغليان نتيجة مرتبطة موضوعياً بالشرط. هذا هو تمام ما ينبّئنا عنه هذا القانون المصاغ بلغة القضية الشرطية.

ومثل هذه القوانين تقدّم خدمة كبيرة للإنسان في حياته الاعتيادية وتلعب دوراً عظيماً في توجيه الإنسان، لأنّ الإنسان ضمن تعرّفه على هذه القوانين يصبح بإمكانه أن يتصرّف بالنسبة إلى الجزاء، ففي كل حالة يرى أنّه بحاجة إلى الجزاء يُعمِل هذا القانون، يُوفّر شروط هذا القانون، ففي كل حالة يكون الجزاء متعارضاً مع مصالحه ومشاعره يحاول الحيلولة دون توفّر شروط هذا القانون. متى ما كان غليان الماء مقصوداً للإنسان يطبّق شروط هذا القانون، ومتى ما لم يكن مقصوداً للإنسان يحاول أن لا تتطبّق شروط هذا القانون.

إذن القانون الموضوع بنهج القضية الشرطية موجّه عملي للإنسان في حياته. ومن هنا تتجلّى حكمة الله سبحانه وتعالى في صياغة نظام الكون على مستوى القوانين وعلى مستوى الروابط المطّردة والسنن الثابتة، لأنّ صياغة الكون ضمن روابط مطّردة وعلاقات ثابتة هو الذي يجعل الإنسان يتعرّف على موضع قدميه، وعلى الوسائل التي يجب أن يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته والوصول إلى إشباع حاجته. لو أنّ الغليان في الماء كان يحدث صدفة ومن دون رابطة قانونية

مطّردة مع حادثة أُخرى كالحرارة، إذن لما استطاع الإنسان أن يتحكم في هذه الظاهرة، أن يخلق هذه الظاهرة متى ما كانت حياته بحاجة إليها، وأن يتفاداها متى ما كانت حياته بحاجة إلى تفاديها، إنّما كان له هذه القدرة باعتبار أنّ هذه الظاهرة وضعت في موضع ثابت من سنن الكون وطرح على الإنسان القانون الطبيعي بلغة القضية الشرطية، فأصبح ينظر في نور لا في ظلام، ويستطيع في ضوء هذا القانون الطبيعي أن يتصرّف.

نفس الشيء نجده في الشكل الأول من السنن التاريخية القرآنية، فإن عدداً كبيراً من السنن التاريخية في القرآن قد تمّت صياغته على شكل القضية الشرطية التي تربط ما بين حادثتين اجتماعيتين أو تاريخيتين، فهي لا تتحدّث عن الحادثة الأُولى أنّها متى توجد ومتى لا توجد، لكن تتحدّث عن الحادثة الثانية، بأنّه متى ما وجدت الحادثة الأولى وجدت الحادثة الثانية. قرأنا فيما سبق استعراضاً للآيات الكريمة التي تدلّ على سنن التاريخ في القرآن، جملة من تلك الآيات الكريمة مفادها هو السنة التاريخية بلغة القضية الشرطية. تتذكرون ما قرأناه سابقاً: ﴿**إنّ الله لا يُغيّرُ ما بِقَوم حتى يُغيّروا ما بأنفُسِهم**﴾ (الرعد، ١١)، هذه السنة التاريخية للقرآن والتي تقدّم الكلام عنها ويأتي إن شاء الله الحديث عن شرحمحتواها. هذه السنة التاريخية للقرآن بُيّنت بلغة القضية الشرطية؛ لأنّ مرجع هذا المفاد القرآني إلى أنّ هناك علاقة بين تغييرين: بين تغيير المحتوى الداخلي للإنسان، وتغيير الوضع الظاهري للبشرية والإنسانية. مفاد هذه العلاقة قضية شرطية: أنّه متى ما وجد ذاك التغيير في أنفس القوم وجد هذا التغيير في بناء القوم وكيان القوم. هذه القضية قضية شرطية بُيّن القانون فيها بلغة القضية الشرطية.

﴿**وألّو استقامُوا على الطرِيقَةِ لأسْقَيناهُم ماءً غَدَقاً**﴾ (الجن، ١٦). قلنا في ما سبق: إنّ هذه الآية الكريمة تتحدّث عن سنة من سنن التاريخ، عن سنّة تربط وفرة

الانتاج بعدالة التوزيع. هذه السنة أيضاً هي بلغة القضية الشرطية كما هو الواضح من صياغتها النحوية أيضاً.

﴿**وإذا أردنا أن نُهلِكَ قَريةً أَمَرنا مُترَفيها فَفَسقُوا فِيها فَحَقّ عَلَيها القولُ فَدَمّرناها تَدميرا**﴾ (الإسراء، ١٦). أيضاً سنة تاريخية بُيّنت بلغة القضية الشرطية. ربطت بين أمرين: بين تأمير الفسّاق والمترفين في المجتمع وبين دمار ذلك المجتمع وانحلاله. هذا القانون التاريخي أيضاً مُبيَّن على نهج القضية الشرطية، فهو لا يبين أنّه متى يوجد الشرط، لكن يبين متى ما وجد هذا الشرط يوجد الجزاء. هذا هو الشكل الأول من أشكال السنة التاريخية في القرآن.

٢. شكل القضيّة الفعليّة (السنن المطلقة)

الشكل الثاني الذي تتّخذه السنن التاريخية: شكل القضية الفعلية الناجزة الوجودية المحققة، وهذا الشكل أيضاً نجد له أمثلة وشواهد في القوانين الطبيعية والكونية. مثلاً: العالم الفلكي حينما يصدر حكماً علمياً على ضوء قوانين مسارات الفلك بأنّ الشمس سوف تنكسف في اليوم الفلاني أو أنّ القمر سوف يخسف في اليوم الفلاني، هذا قانون علمي وقضية علمية، إلا أنّها قضية وجودية ناجزة، ليست قضية شرطية. لا يملك الإنسان اتّجاه هذه القضية أن يغيّر من ظروفها، أن يعدّل من شروطها؛ لأنّها لم تُبيّن كلغة قضية شرطية، وإنّما بيّنت على مستوى القضية الفعلية الوجودية: الشمس سوف تنكسف، القمر سوف يخسف. هذه قضية فعلية تنظر إلى الزمان الآتي وتخبر عن وقوع هذه الحادثة على أي حال.

كذلك الأنواء الجوية، القرارات العلمية التي تصدر عن الأنواء الجوية: المطر ينهمر على المنطقة الفلانية. هذا أيضاً يعبر عن قضية فعلية وجودية لم تُصغ بلغة القضية الشرطية، وإنّما صيغت بلغة التنجيز والتحقيق بلحاظ مكان معين وزمان معين. هذا هو الشكل الثاني من السنن التاريخية، وسوف أُشير فيما بعد إن شاء

الله تعالى ـ عند تحليل عناصر المجتمع ـ إلى أمثلة هذا الشكل من القرآن الكريم[1].

هذا الشكل من السنن التاريخية هو الذي أوحى في الفكر الأُوروبي بتوهّم التعارض بين فكرة سنن التاريخ وفكرة اختيار الإنسان وإرادته. نشأ هذا التوهّم الخاطىء الذي يقول بأنّ فكرة سنن التاريخ لا يمكن أن تجتمع إلى جانب فكرة اختيار الإنسان، لأنّ سنن التاريخ هي التي تنظّم مسار الإنسان وحياة الإنسان، إذن ماذا يبقى لإرادة الإنسان؟

هذا التوهّم أدّى إلى أنّ بعض المفكرين يذهب إلى أنّ الإنسان له دور سلبي فقط حفاظاً على سنن التاريخ وعلى موضوعية هذه السنن. ضحّى باختيار الإنسان من أجل الحفاظ على سنن التاريخ فقال بأنّ الإنسان دوره دور سلبي وليس دوراً إيجابياً، يتحرّك كما تتحرّك الآلة وفقاً لظروفها الموضوعية، ولعله يأتي بعض التفصيل أيضاً عن هذه الفكرة.

وذهب بعض آخر في مقام التوفيق ما بين هاتين الفكرتين ولو ظاهرياً إلى أنّ اختيار الإنسان نفسه هو أيضاً يخضع لسنن التاريخ ولقوانين التاريخ. لا نضحّي باختيار الإنسان، لكن نقول بأنّ اختيار الإنسان لنفسه حادثة تاريخية أيضاً، إذن هو بدوره يخضع للسنن. هذه تضحية باختيار الإنسان لكن بصورة مبطنة، بصورة غير مكشوفة.

وذهب بعض آخر إلى التضحية بسنن التاريخ لحساب اختيار الإنسان، فذهب جملة من المفكرين الأُوروبيين إلى أنّه مادام الإنسان مختاراً فلابدّ من أن تستثنى الساحة التاريخية من الساحات الكونية في مقام التقنين الموضوعي، لابدّ وأن يقال بأنّه لا سنن موضوعية للساحة التاريخية حفاظاً على إرادة الإنسان وعلى اختيار الإنسان.

وهذه المواقف كلّها خاطئة؛ لأنّها جميعاً تقوم على ذلك الوهم الخاطئ، وهم

١. من الجدير بالذكر أن السيد الشهيد لم يصرّح في بحثه لعناصر المجتمع بمصاديق الشكل الثاني.

http://ipt.isca.ac.ir
Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

الاعتقاد بوجود تناقض أساسي بين مقولة السنة التاريخية ومقولة الاختيار، وهذا التوهّم نشأ من قصر النظر على الشكل الثاني من أشكال السنة التاريخية، أي قصر النظر على السنة التاريخية المصاغة بلغة القضية الفعلية الوجودية الناجزة. لو كنّا نقصر النظر على هذا الشكل من سنن التاريخ، ولو كنّا نقول بأنّ هذا الشكل هو الذي يستوعب كل الساحة التاريخية لا يبقي فراغاً لذي الفراغ، لكان هذا التوهّم وارداً، ولكنّا يمكننا إبطال هذا التوهّم عن طريق الالتفات إلى الشكل الأول من أشكال السنة التاريخية الذي تصاغ فيه السنة التاريخية بوصفها قضية شرطية.

وكثيراً ما تكون هذه القضية الشرطية في شرطها معبّرة عن إرادة الإنسان واختيار الإنسان، يعني أنّ اختيار الإنسان يمثّل محور القضية الشرطية، شرط القضية الشرطية. إذن فالقضية الشرطية كالأمثلة التي ذكرناها من القرآن الكريم تتحدّث عن علاقة بين الشرط والجزاء، لكن ما هو الشرط؟ الشرط هو فعل الإنسان، هو إرادة الإنسان: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهِم**﴾ (الرعد، ١١). التغيير هنا أُسند إليهم فهو فعلهم، إبداعهم وارادتهم.

إذن السنة التاريخية حينما تصاغ بلغة القضية الشرطية، وحينما يحتلّ إبداع الإنسان واختيار الإنسان موضوع الشرط في هذه القضية الشرطية، في مثل هذه الحالة تصبح هذه السنة متلائمة تماماً مع اختيار الإنسان، بل إنّ السنة حينئذ تطغي اختيار الإنسان، تزيده اختياراً وقدرة وتمكّناً من التصرف في موقفه، كيف أنّ ذلك القانون الطبيعي للغليان كان يزيد من قدرة الإنسان؛ لأنه يستطيع حينئذ أن يتحكّم في الغليان بعد أن عرف شروطه وظروفه، كذلك السنن التاريخية ذات الصيغ الشرطية، هي في الحقيقة ليست على حساب إرادة الإنسان، وليست نقيضاً لاختيار الإنسان، بل هي مؤكدة لاختيار الإنسان، وتوضح للإنسان نتائج الاختيار لكي يستطيع أن يقتبس ما يريده من هذه النتائج، لكي يستطيع أن يتعرف على الطريق الذي يسلك به إلى هذه النتيجة أو إلى تلك

النتيجة، فيسير على ضوء وكتاب منير. هذا هو الشكل الثاني للسنة التاريخية.

٣. السنّة المصاغة على صورة الاتجاه الطبيعي (السنن الموضوعية)

الشكل الثالث للسنة التاريخية: وهو شكل اهتمّ به القرآن الكريم اهتماماً كبيراً، هو السنة التاريخية المصاغة على صورة اتّجاه طبيعي في حركة التاريخ لا على صورة قانون صارم حدّي. وفرق بين الاتّجاه والقانون. ولكي نتّضح الفكرة في ذلك لابدّ وأن نطرح الفكرة الاعتيادية التي نعيشها في أذهاننا عن القانون.

القانون العلمي كما نتصوّره عادة: عبارة عن تلك السنة التي لا تقبل التحدّي من قبل الإنسان، لأنّها قانون من قوانين الكون والطبيعة فلا يمكن للإنسان أن يتحدّاها، أن ينقضها، أن يخرج عن طاعتها. يمكنه أن لا يصلّي، لأنّ وجوب الصلاة حكم تشريعي وليس قانوناً تكوينياً، يمكنه أن يشرب الخمر، لأنّ حرمة شرب الخمر قانون تشريعي وليس قانوناً تكوينياً، لكنه لا يمكنه أن يتحدّى القوانين الكونية والسنن الموضوعية، مثلاً: لا يمكنه أن يجعل الماء لا يغلي إذا توفّرت شروط الغليان، لا يمكنه أن يتحدّى الغليان، أن يؤخرّ الغليان لحظة عن موعده المعين، لأنّ هذا قانون، والقانون صارم، والصرامة تأبى التحدّي.

هذه هي الفكرة التي نتصوّرها عادة عن القوانين، وهي فكرة صحيحة إلى حدّما، لكن ليس من الضروري أن تكون كل سنّة طبيعية موضوعية على هذا الشكل بحيث تأبى التحدّي ولا يمكن تحدّيها من قبل الإنسان بهذه الطريقة، بل هناك اتّجاهات موضوعية في حركة التاريخ وفي مسار الإنسان، إلا أنّ هذه الاتجاهات لها شيء من المرونة بحيث إنّها تقبل التحدّي ولو على شوط قصير، وإن لم تقبل التحدّي على شوط طويل، لكن على الشوط القصير تقبل التحدّي. أنت لا تستطيع أن تؤخّر موعد غليان الماء لحظة، لكن تستطيع أن تجمّد هذه الاتجاهات لحظات من عمر التاريخ، لكن هذا لا يعني أنها ليست اتّجاهات تمثل واقعاً موضوعياً في حركة التاريخ، هي اتّجاهات ولكنّها مرنة تقبل التحدّي لكنّها

تحطّم المتحدي، حينما يتحدّى هذا المتحدّي تحطّمه بسنن التاريخ نفسها، ومن هنا كانت اتجاهات، هناك أشياء يمكن تحدّيها دون أن يتحطّم المتحدي، لكن هناك أشياء يمكن أن تتحدّى على شوط قصير ولكن المتحدّي يتحطّم على يد سنن التاريخ نفسها، هذه هي طبيعة الاتّجاهات الموضوعية في حركة التاريخ.

نماذج من السنن الموضوعية في القرآن

النموذج الأول: لكي أُقرّب الفكرة إليكم نستطيع أن نقول بأنّ هناك اتّجاهاً في تركيب الإنسان وفي تكوين الإنسان، اتّجاهاً موضوعياً لا تشريعياً إلى إقامة العلاقات المعينة بين الذكر والأُنثى في مجتمع الإنسان ضمن إطار من أُطر النكاح والاتّصال، هذا الاتّجاه ليس تشريعاً، ليس تقنيناً اعتبارياً وإنّما هو اتّجاه موضوعي أُعملت العناية في سبيل تكوينه في مسار حركة الإنسان. لا نستطيع أن نقول: إنّ هذا مجرّد قانون تشريعي، مجرّد حكم شرعي، لا وإنّما هذا اتّجاه ركّب في طبيعة الإنسان وفي تركيب الإنسان، وهو الاتّجاه إلى الاتّصال بين الذكر والأُنثى وإدامة النوع عن طريق هذا الاتّصال ضمن إطار من أُطر النكاح الإجتماعي. (الحكيم، ١٤٣٢ق، ص ٢٨٤)

هذه سنّة، لكنها سنة على مستوى الاتّجاه لا على مستوى القانون. لماذا؟ لأنّ التحدّي لهذه السنّة لحظة أو لحظات ممكن. أمكن لقوم لوط أن يتحدّوا هذه السنّة فترة من الزمن، بينما لم يكن بإمكانهم أن يتحدّوا سنّة الغليان بشكل من الأشكال، لكنهم تحدّوا هذه السنّة إلا أنّ تحدّي هذه السنة يؤدّي إلى أن يتحطم المتحدّي. المجتمع الذي يتحدّى هذه السنة يكتب بنفسه فناء نفسه؛ لأنه يتحدّى ذلك عن طريق ألوان أُخرى من الشذوذ التي رفضها هذا الاتّجاه الموضوعي، وتلك الألوان من الشذوذ تؤدّي إلى فناء المجتمع وإلى خراب المجتمع. ومن هنا كان هذا اتّجاهاً موضوعياً يقبل التحدّي على شوط قصير، لكن لا يقبل التحدّي على شوط طويل؛ لأنه سوف يحطم المتحدّي بنفسه.

http://ipt.isca.ac.ir
Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

النموذج الثاني: الاتّجاه إلى توزيع الميادين بين المرأة والرجل، هذا الاتّجاه اتّجاه موضوعي، وليس اتّجاهاً ناشئاً من قرار تشريعي. اتّجاه ركّب في طبيعة الرجل والمرأة، ولكن هذا الاتّجاه يمكن أن يتحدّى، يمكن استصدار تشريع يفرض على الرجل بأن يبقى في البيت ليتولّى دور الحضانة والتربية، وأن تخرج المرأة إلى الخارج لكي تتولّى مشاق العمل والجهد. هذا بالامكان أن يتحقق عن طريق تشريع معيّن وبهذا يحصل التحدّي لهذا الاتجاه، لكن هذا التحدّي سوف لن يستمر، لأنّ سنن التاريخ سوف تجيب على هذا التحدّي، لأ نّنا بهذا سوف نخسر ونجمّد كل تلك القابليات التي زوّدت بها المرأة من قبل هذا الاتّجاه لممارسة دور الحضانة والأُمومة، وسوف نخسر كل تلك القابليات التي زوّد بها الرجل من أجل ممارسة دور يتوقّف على الجلد والصبر والثبات وطول النفس. تماماً من قبيل أن تسلّم بناية، تسلّم نجارياتها إلى حداد، وحدادياتها إلى نجار. يمكن أن تصنع هكذا ويمكن أن تنشأ البناية أيضاً، لكن هذه البناية سوف تنهار، سوف لن يستمر هذا التحدّي على شوط طويل، سوف ينقطع في شوط قصير. كل اتّجاه من هذا القبيل هو في الحقيقة سنة موضوعية من سنن التاريخ ومن سنن حركة الإنسان، ولكنّها سنّة مرنة تقبل التحدّي على الشوط القصير، ولكنّها تجيب على هذا التحدّي.

النموذج الثالث: الدين مصداق لهذا الشكل:

وأهمّ مصداق يعرضه القرآن الكريم لهذا الشكل من السنن، هذا الشكل من السنن أهم مصداق يعرضه هو الدين. القرآن الكريم يرى أنّ الدين نفسه سنة من سنن التاريخ، سنة موضوعية من سنن التاريخ، ليس الدين فقط تشريعاً وإنّما هو سنة من سنن التاريخ، ولهذا يعرض الدين على شكلين: تارة يعرضه بوصفه تشريعاً، كما يقول علم الأُصول بوصفه إرادة تشريعية، مثلا يقول:

﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِينِ ما وصّى به نُوحاً والذِي أوْحَينا إليكَ وما وصَّينا به إبراهيم

http://ipt.isca.ac.ir
Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

ومُوسى وعِيسى أن أقِيمُوا الدِينَ ولا تَتَفَرّقُوا فيه كَبُرَ على المشرِكِين ما تَدعُوهُم إليهِ﴾ (الشورى، ١٣).

هنا يبين الدين كتشريع، كقرار، كأمر من الله سبحانه وتعالى، لكن في مجال آخر يبيّنه سنة من سنن التاريخ وقانوناً داخلا في صميم تركيب الإنسان وفطرة الإنسان. قال سبحانه وتعالى:

﴿**فأقِمْ وَجْهَكَ للدينِ حَنِيفاً فِطرةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عَليها لا تَبدِيلَ لخلْقِ اللهِ ذلِكَ الدينُ القيّمُ ولكنَّ أكثَرَ الناسِ لا يَعلَمُونَ**﴾ (الروم، ٣٠). هنا الدين لم يعد مجرّد تشريع، مجرّد قرار من أعلى وإنّما الدين هنا فطرة للناس، هو فطرة الله التي فطر عليها الناس ولا تبديل لخلق الله. هذا الكلام كلام موضوعي خبري لا تشريعي إنشائي. لا تبديل لخلق الله: يعني كما أ نّك لا يمكنك أن تنتزع من الإنسان أيّ جزء من أجزائه التي تقوِّمه، كذلك لا يمكنك أن تنتزع من الإنسان دينه. الدين ليس مقولة حضارية مكتسبة على مرّ التاريخ يمكن إعطاؤها ويمكن الاستغناء عنها؛ لأنّها في حالة من هذا القبيل لا تكون فطرة الله التي فطر الناس عليها ولا تكون خلق الله الذي لا تبديل له، بل تكون من المكاسب التي حصل عليها الإنسان من خلال تطوراته المدنيّة والحضارية على مرّ التاريخ. القرآن يريد أن يقول بأن الدين ليس مقولة من هذه المقولات بالإمكان أخذها وبالإمكان إعطاؤها، الدين خلق الله: ﴿**فطرة الله التي فَطَرَ الناس عليها ولا تبديل لخلق الله**﴾. هذا الكلام (لا) هنا ليست ناهية بل نافية، يعني هذا الدين لا يمكن أن ينفك عن خلق الله مادام الإنسان إنساناً، فالدين يعتبر سنة لهذا الإنسان.

هذه سنة ولكنّها ليست سنة صارمة على مستوى قانون الغليان، سنة تقبل التحدّي على الشوط القصير، كما كان بالإمكان تحدّي سنة النكاح، سنة اللقاء الطبيعي والتزاوج الطبيعي، كما كان بالإمكان تحدّي ذلك عن طريق الشذوذ الجنسي لكن على شوط قصير، كذلك يمكننا أيضاً تحدّي هذه السنة على شوط قصير عن طريق الإلحاد وغمض العين عن هذه الحقيقة الكبرى، بإمكان

الإنسان أن لا يرى الشمس، أن يغمض عينه عن الشمس ويلحد ولا يرى هذه الحقيقة، ولكن هذا التحدّي لا يكون إلا على شوط قصير؛ لأنّ العقاب سوف ينزل بالمتحدّي. العقاب هنا ليس بمعنى العقاب الذي ينزل على من يرتكب مخالفة شرعية على يد ملائكة العذاب في السماء في يوم القيامة، ليس هو ذاك العقاب الذي ينزل على من يخالف القانون على يد الشرطي، يضربه بالعصا على رأسه، وإنما العقاب هنا ينزل من سنن التاريخ نفسها، سنن التاريخ نفسها تفرض العقاب على كل أُمّة تريد أن تبدّل خلق الله سبحانه وتعالى، ولا تبديل لخلق الله.

﴿**وَيَستَعجِلُونَكَ بالعَذَابِ ولَنْ يُخلِفَ اللهُ وَعدَهُ وإنّ يوماً عندَ رَبّكَ كألفِ سَنَة مِمّا تَعُدُّونَ**﴾ (الحج، ٤٧). نحن نقول بأن السنن التاريخية من الشكل الثالث إذا تحدّاها الإنسان فسوف يأخذ العقاب من السنن التاريخية، سرعان ما ينزل عليه العقاب من السنن التاريخية نفسها، لكن كلمة (سرعان) هنا يجب أن تؤخذ بمعنى السرعة التاريخية لا السرعة التي نفهمها في حياتنا الاعتيادية، وهذا ما أرادت أن تقوله هذه الآية الكريمة، هذه الآية الكريمة في المقام تتحدّث عن العذاب، واقعة في سياق العذاب الجماعي الذي نزل بالقرى السابقة الظالمة، ثم بعد ذلك تقول، يتحدّث عن استعجال الناس في أيام رسول الله‘، الناس يستعجلون رسول الله‘ ويقولون له: أين هذا العقاب؟ أين هذا العقاب؟ لماذا لم ينزل بنا نحن الآن؟ كفرنا بك، تحدّيناك، لم نؤمن بك، صممنا آذاننا عن قرآنك، لماذا لا ينزل بنا هذا العذاب؟ هنا القرآن يتحدّث عن السرعة التاريخية التي تختلف عن السرعة الاعتيادية يقول: ﴿**ويستعجلونَكَ بالعذابِ ولن يخلِف الله وَعْدَهُ**﴾؛ لأنّها سنة، سنة تاريخية، والسنة التاريخية ثابتة، لكن ﴿**وإنّ يوماً عند ربك كألفِ سَنَة ممّا تُعُدّونَ**﴾ اليوم الواحد في سنن التاريخ عند ربك، باعتبار أنّ سنن التاريخ هي كلمات الله كما قرأنا في ما سبق، كلمات الله سنن التاريخ. إذن في كلمات الله، في سنن الله، اليوم الواحد، المهلة القصيرة هي ألف سنة.

طبعاً في آية أُخرى عبّر بخمسين ألف سنة، لكن أُريد بذلك أيام القيامة لا يوم الدنيا وهذا هو وجه الجمع بين الآيتين، الكلمتين. في آية أُخرى قيل:﴿**تَعْرُجُ الملائكةُ والروحُ إليهِ في يوم كانَ مِقدارُهُ خمسينَ ألفَ سَنَةٍ* فاصْبِرْ صَبراً جَميلا* إنّهم يَرَوْنَهُ بَعيداً* ونَراهُ قَريباً* يَوم تَكُونُ السماءُ كالْمُهْلِ**﴾ (المعارج، ٤-٨) هذا ناظر إلى يوم القيامة، إلى يوم تكون السماء كالمهل، فيوم القيامة قدّر بخمسين ألف سنة، أمّا هنا فيتكلم عن يوم توقيت نزول العذاب الجماعي وفقاً لسنن التاريخ، يقول: ﴿**وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون**﴾.

إذن فهذا شكل ثالث من السنن التاريخية، هذا الشكل هو عبارة عن اتّجاهات موضوعية في مسار التاريخ وفي حركة الإنسان وفي تركيب الإنسان، يمكن أن يُتحدّى على الشوط القصير، ولكن سنن التاريخ لا تقبل التحدّي على الشوط الطويل، إلا أنّ الشوط القصير والطويل هنا ليس بحسب طموحاتنا، بحسب حياتنا الاعتيادية يوم أو يومين؛ لأنّ اليوم الواحد في كلمات الله وفي سنن الله كألف سنة ممّا نحسب.

هذا هو الشكل الثالث، الدين هو المثال الرئيسي للشكل الثالث[1]. [2]

منظومة السنن الاجتماعية في القرآن الكريم

نريد بمنظومة السنن بيان العلاقة القائمة بين السنن نفسها، وايضاح كيفية ترابط السنن فيما بينها وأن أيّة سنة تقع تحت ظل أيّة أخرى. وكيف تتسلسل السنن المطلقة فيما بينها وكيف تسلسل السنن المشروطة.

---

١. ومن خلال تحليله لعناصر المجتمع (في كتاب المدرسة القرآنية (الصدر، ١٤٣١ق «ب»)) أثبت الشهيد الصدر أن الدين سنة تاريخية موضوعية وليس مجرد تشريع أو مجموعة أحكام الهية بل هو حاجة أساسية موضوعية حاله حال قانون الزوجية الذي يعتبرها حاجة فطرية انسانية اجتماعية لا يمكن التخلف عنها والتمرّد عليها على المدى البعيد.

٢. للمزيد من التوضيح انظر مباحث خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ومنابع قدرة الدولة الإسلامية في كتاب الإسلام يقود الحياة (الصدر، ١٤٣٤ق «أ»).

http://ipt.isca.ac.ir
Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

وكشف هذه المنظومة أمر عسير يحتاج الى إشراف كامل ولا ندعّي أنّنا الآن نحيط بذلك علماً ولكن نقدم هنا محاولة متواضعة قابلة للدرس والمناقشة والتطوير.

الف: السنن المطلقة العامة ويمكن تلخيصها فيما يلي:

١- مبدأ السببية أو السننية: قانون السببية أو سنة الله في الأسباب والمسبّبات. (وهو مبدأ العلّية بالمصطلح الفلسفي)

٢- سنة الرحمة الالهية المطلقة ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ (الأعراف، ١٥٦).

٣- سنة الهداية العامة ﴿**ان علينا للهدى**﴾ (الليل، ١٢).

٤- سنة الاختلاف في القابليات والامكانات والأرزاق ﴿**ولا يزالون مختلفين... ولذلك خلقهم**﴾ (هود، ١١٨-١١٩) ﴿**ورفع بعضكم فوق بعض درجات**﴾ (الأنعام، ١٦٥).

٥- سنة الاختيار وحريّة ارادة الانسان ﴿**لمن شاء منكم ان يستقيم**﴾ (التكوير، ٢٨).

٦- سنة توقّف الكمال الانسانى على السعي الانساني - فى هذه الحياة ﴿**وان ليس للانسان إلا ما سعى**﴾ (النجم، ٣٩).

٧- سنة الابتلاء والامتحان الشامل في هذه الحياة ﴿**ليبلوكم فيما أتاكم**﴾ (الملك، ٢) ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ (المائدة، ٤٨).

٨- سنة التعارض والصراع بين الحق والباطل: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ (هود، ٧) ﴿**وقل جاء الحق وزهق الباطل**﴾ (الإسراء، ٨١) ﴿**وان هذا عدوّ لك ولزوجك**﴾ (طه، ١١٧).

٩- سنة التغيير (تبعية كل تغيير اجتماعي فى السطح للتغيير الداخلي للانسان): ﴿**لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ (الرعد، ١١).

١٠- سنة المسؤولية الانسانية العامة وفطرة التدين بالدين الحق ﴿**انا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان**﴾ (الأحزاب، ٧٢).

http://ipt.isca.ac.ir
Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

١١- سنة الخلافة العامة للانسان عن الله وتكريمه في هذه الحياة الدنيا ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾ (الإسراء، ٧٠) ﴿**اني جاعل في الأرض خليفة**﴾ (البقرة، ٣٠).

١٢- سنة الشهادة الربانية المتمثلة بالقادة الهداة: ﴿**فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا**﴾ (النساء، ٤١).

١٣- سنة الزواج وتكامل المجتمع الانساني عن طريق المصاهرة والانتساب (والتناسل) ﴿**وخلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً**﴾ (الفرقان، ٥٤).

١٤- سنة آجال الأمم ﴿**لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ (الأعراف، ٣٤).

١٥- سنة انتصار الحق في نهاية الصراع بين الحق والباطل وبطلان الباطل في نهاية المطاف ﴿**وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا**﴾ (الإسراء، ٨١).

١٦- حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد.

١٧- سنة الإمداد العامة. ﴿**وكلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء**﴾ (الإسراء، ٢٠).

١٨- ﴿**لا يستوي الخبيث والطيّب**﴾ (المائدة، ١٠٠).

ب - السنن المشروطة أو السنن الخاصة التي تعمل في دائرة خاصة ويكون نفوذها تابعاً لنوع الخط والمسيرة التي يختارها الانسان. فمن سلك طريق الحق كانت له سنن ومن سلك طريق الباطل كانت له سنن تتناسب مع مسيرته ﴿**كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً**﴾ (الإسراء، ٢٠).

سنن الاهتداء:

١- ﴿**من يهد الله فهو المهتد**﴾ (الأعراف، ١٧٨). ﴿**والذين اهتدوا زدناهم هدى**﴾ (الكهف، ١٣).

٢- ﴿**والذين آمنوا يهديهم ربهم بايمانهم**﴾ (يونس، ٩).

٣- ﴿**ومن يتق الله يجعل له فرقانا**﴾ / ﴿**مخرجا**﴾ (الطلاق، ٢).

٤- ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾ (الأعراف، ٩٦).

٥ ـ ﴿**وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً**﴾ (الجن، ١٦).

٦ ـ ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون**﴾ (الصافات، ١٧١ ـ ١٧٢).

٧- ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ (غافر، ٥١).

٨- الإتحاد سبب القوة والنصر. ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا**﴾ (الأنفال، ٤٦).

٩- شكر النعم يؤدي إلى إزديادها. ﴿**لئن شكرتم لأزيدنّكم**﴾ (إبراهيم، ٧).

١٠- العدل حياة الأمم وبه تتكامل الإنسانية. ﴿**واقيموا الوزن بالقسط**﴾ (الرحمن، ٩).

سنن الانحراف

١ ـ ﴿**ان الباطل كان زهوقا**﴾(الإسراء، ٨١).

٢ ـ ﴿**ومن يضلل فلا هادي له**﴾(الرعد، ٣٣).

٣ ـ ﴿**إن الإنسان ليطغى* إن رآه استغنى**﴾ (العلق، ٦ ـ ٧).

٤ ـ ﴿**ونستدرجهم من حيث لا يعلمون**﴾ (الأعراف، ١٨٢).

٥ ـ ﴿**وأملي لهم إن كيدي متين**﴾ (الأعراف، ١٨٣).

٦ ـ ﴿**ولا يحيق المكر السيء إلا باهله**﴾ (فاطر، ٤٣).

٧- ﴿**فقطع دابر القوم الذين ظلموا**﴾ (الأنعام، ٤٥) ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ (الأنعام، ٤٧).

٨- التنازع سبب الفشل والخسران. ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾ (الأنفال، ٤٦).

٩- كفران النعم يؤدي إلى زوالها. ﴿**ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد**﴾ (إبراهيم، ٧).

١٠- الفسق ظلم وطغيان يوجب كثرة الفساد. ﴿**الذين طغوا في البلاد فاكثروا فيها الفساد**﴾ (الفجر، ١١).

وكثرة الفساد توجب الدمار والهلاك. ﴿**فصبّ عليهم ربك سوط عذاب**﴾ (الفجر، ١٣).

سنن التغيير الاجتماعي

خلق الله الانسان وزوده بفطرة حب الذات والنزوع إلى الكمال، كما زوده بالعقل القادر على الفهم وتحصيل الرؤية الصحيحة عن الكون والحياة، مع حرية الارادة في مجال اختيار الطريق الذي يسلكه في الحياة.

وكل فساد اجتماعي إنما ينشأ من فساد الأجزاء التي يتألف منها المجتمع، أي فساد الأفراد. قال تعالى: ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس**﴾ (الروم، ٤١). إذن فساد السلوك الفردي وانحرافه في كل مجتمع هو عامل ظهور الفساد في المجتمع، كما أن صلاح الأفراد وسلامة سلوكهم هو عامل صلاح المجتمع وسلامته. قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾ (الرعد، ١١). إذن هناك علاقة طردية بين سلامة الافراد وسلامة المجتمع، وفساد الافراد وفساد المجتمع؛ فكل تغيير سياسي أو اقتصادي يكون فرعاً، ويتقوّم بالتغيير المتمثل في سلوك أبناء ذلك المجتمع.

وأما سلوك الأفراد فبالامكان تغييره وتطويره، تبعاً لتغيير المحتوى الداخلي الذي يمكن تحقيقه من خلال إرادتهم واختيارهم، عبر قناتي الفكر والعاطفة، فالرؤية التي تسيطر على روح الفرد، والافكار التي يختارها عن الكون والحياة، وعن السعادة والشقاء، والخير والشرّ، والنقص والكمال، هي التي تُملي عليه نمطاً خاصاً من السلوك في الحياة. وهكذا يتوقف التغيير الاجتماعي على تغيير المحتوى الداخلي للافراد، بنحو يشكل تياراً اجتماعياً يأخذ بزمام الأمور في مجتمع ما،

ليحدث التغيير المناسب. في ذلك المجتمع؛ وبهذا تحتاج كل ثورة اجتماعية إلى قاعدة ثورية تتجسد في مجموعة من أبناء المجتمع، تحمل مشعل التغيير والاصلاح، بعد أن تكون قد آمنت بفساد الاوضاع أو بفساد المصير، على أن تملك رؤية واضحة وعملية لعملية التغيير، ومنهجاً عملياً تسير عليه الأُمة في الحياة. وهكذا سلك الأنبياء في مجال الاصلاح الاجتماعي، بدءاً بالعمل الثقافي والتغيير الفكري والعقيدي، فالتغيير الروحي والاخلاقي، ثم التغيير السلوكي الفردي حتى اكتمال بناء القاعدة الثورية، ورعاية هذه القاعدة وتربيتها، والسير بها نحو بناء الدولة والنظام الاجتماعي المتمثل في نظام سياسي وإداري واقتصادي جديد. (انظر: الحكيم، ١٤٣٢ق، ص ٢٩٤).

سنن الانهيار الاجتماعي

قال الله تعالى:

١- ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس**﴾ (الروم، ٤١).

٢- ﴿**الذين طغوا في البلاد* فأكثروا فيها الفساد* فصب عليهم ربك سوط عذاب**﴾ (الفجر، ١١-١٣).

٣- ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميراً**﴾ (الإسراء، ١٦).

٤- ﴿**وما كان ربّك ليُهلك القرى بظلم وأهلها مُصلحون**﴾ (هود، ١١٧).

٥- ﴿**وكم أهلكنا من قرية بطِرت معيشتها**﴾ (القصص، ٥٨).

٦- ﴿**وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة... فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾ (النحل، ١١٢).

٧- ﴿**قال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنّكم من أرضنا أو لتعودن في ملّتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الارض من بعدهم**﴾ (ابراهيم، ١٣).

٨- ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾ (الأنفال، ٤٦).

٩- ﴿**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكّناهم في الارض... فأهلكناهم بذنوبهم**﴾ (الأنعام، ٦).

١٠- ﴿**مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت**﴾ (العنكبوت، ٤١).

فالشرك، والكفر، والظلم، والنزاع، وكفران النعم، وبطر المعيشة، والفسق، وكثرة الفساد هي عوامل الانهيار الاجتماعي التي كشف عنها القرآن الكريم، وأشار إلى السنن الاجتماعية التي جرت على المجتمعات البشرية، ولم تتخلف عنها قيد شعرة.

والانهيار الاجتماعي قد يكون سريعاً، وقد يكون بطيئاً، تبعاً لسرعة العوامل وقوّتها في تحطيم عرى المجتمع، وتفكيك قواه، وفصم عراه. (الحكيم، ١٤٣٢ق، ص ٢٩٥).

وقد أشار القرآن الكريم إلى سنة الاستدراج، المتمثلة في القسوة التدريجية للقلوب نتيجة للظلم والذنوب، التي تترك بصماتها على روح الانسان فتبتعد عن الله وعن رؤية الواقع رؤية صحيحة، نتيجة لتزيين الشيطان والانبهار بزخارف الحياة السُفلى، وإذا بالانحراف يتفاقم: وبالتردي يزداد سرعة، ويتحقق الموضوع لسنة التراكم والدمار التي أشير إليها بقوله تعالى: ﴿**فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون* فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾ (الأنعام، ٤٤-٤٥).

نتائج البحث

المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي يكون فيه الدين هو القيّم والمرشد الذي يُؤسس النظام الاجتماعي ويضمن تنفيذ هذا النظام. وفي هذا السياق فقط، يتمكن المجتمع من إزالة التناقضات الاجتماعية، واللامساواة، والشقاء المدمّر

الذي يعيشه الإنسان. أما النظم والمذاهب الأخرى، فإنها إما تعاني من نقصٍ نظري في بناء النظام الاجتماعي أو تفتقر إلى الآليات التنفيذية اللازمة لتطبيق هذا النظام. ومن هنا، عند الوصول إلى النظام الاجتماعي الأصلح، يمكن أن نحقق التغيير النهائي الذي لا يتمخّض عن صراعات سياسية مدمّرة، والذي سيقضي على بؤس الإنسان بشكل كامل. وهو نظام يضمن السلامة حيث يقدّم الحلّ السليم لرفع التناقض الداخلي للانسان الذي يتمثل في حبه لذاته وسعيه نحو الكمال، من خلال حلولٍ نابعة من داخله.

إنَّ هذه النتيجة تحمل أهمية كبيرة في واقعنا المعاصر، فبفضل هذا الفهم، يمكننا أن ندرك المسافة الكبيرة بين مجتمعنا المعاصر والمجتمع الإسلامي النموذجي، ومن ثَمّ العمل على وضع خطّة سليمة للاقتراب منه وتحقيقه.

للمزيد من الدراسة، يُستحسن الرجوع إلى كتاب مجتمعنا في تراث الشهيد السيد محمدباقر الصدر للمؤلف (الطبعة الأولى، ١٤٣٢ق، بيروت: دار التعارف للمطبوعات).

المصادر

* القرآن الكريم

١. التسخيرى، محمدعلي. (٢٠٠٩م)، الشهيد آية الله السيد محمدباقر الصدر تلاحم بين العبقرية والجهاد (نُشر هذا المقال في كتاب: الحكيم، السيد منذر. (٢٠٠٩م). مجتمعنا فى فكر وتراث الشهيد السيد محمدباقر الصدر (الطبعة الأولى). قم: المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية).

٢. الحكيم، السيد منذر. (١٤٣٢ق). مجتمعنا في تراث الشهيد السيد محمدباقر الصدر (الطبعة الأولى). بيروت: دار التعارف للمطبوعات.

٣. الحكيم، السيد منذر. (١٤٣٧ق). المجتمع الإسلامي في الروية القرآنية (الطبعة الأولى). بيروت: دار الولاء لصناعة النشر.

٤. الصدر، السيد محمدباقر. (١٤٣١ق «أ»). فلسفتنا (الطبعة الأولى). بيروت: مؤسسة العارف للمطبوعات.

٥. الصدر، السيد محمدباقر. (١٤٣١ق «ب»). المدرسة القرآنية (الطبعة الأولى). بيروت: مؤسسة العارف للمطبوعات.

٦. الصدر، السيد محمدباقر. (١٤٣٤ق «أ»). الإسلام يقود الحياة (الطبعة الأولى). قم: انتشارات دار الصدر.

٧. الصدر، السيد محمدباقر. (١٤٣٤ق «ب»). الفتاوى الواضحة (الطبعة الأولى). قم: انتشارات دار الصدر.

٨. الصدر، السيد محمدباقر. (١٤٣٤ق «ج»). المدرسة الإسلامية (الطبعة الأولى). قم: انتشارات دار الصدر.